



من غياب الكلام إلى القيمة الثقافية:
مقاربة مفاهيمية في التراث العربي والإسلامي
د. يوسف محفوظ
دكتور باحث في حوار الثقافات والتواصل الثقافي
المغرب

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى مقارنة الصمت من زاوية مفاهيمية ودلالية، من خلال تتبع معانيه في المعاجم العربية، واستجلاء دلالاته الاصطلاحية في عدد من الحقول المعرفية، خاصة علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة واللسانيات. كما يتناول حضور الصمت في الدراسات اللسانية المعاصرة، وصلته بالبلاغة والإكراه، قبل الانتقال إلى بحث تمثلاته في التراث العربي والإسلامي. ويسعى المقال إلى إبراز جدلية الصمت والكلام في الموروث العربي، والكشف عن أبعاده الأخلاقية والثقافية في المرجعيات الإسلامية، بما يوضح انتقاله من مجرد امتناع عن الكلام إلى قيمة ذات دلالات اجتماعية وثقافية متعددة.

الكلمات المفتاحية: الصمت - الدلالة - المفهوم - التراث العربي والإسلامي - الكلام - الثقافة - المرجعيات الإسلامية.



Abstract

This article approaches silence from conceptual and semantic perspectives by tracing its meanings in Arabic dictionaries and examining its terminological connotations across several fields of knowledge, particularly psychology, sociology, philosophy, and linguistics. It also explores the presence of silence in contemporary linguistic studies and its relationship to rhetoric and coercion, before turning to its representations in the Arab and Islamic heritage. The article seeks to highlight the dialectical relationship between silence and speech in the Arab intellectual tradition and to uncover its ethical and cultural dimensions within Islamic references, thereby demonstrating its transformation from a mere abstention from speech into a value endowed with multiple social and cultural meanings.



- مقدمة

تعتبر اللغة اللفظية في الدراسات اللسانية والتواصلية مركز العملية التواصلية، باعتبارها الأداة الأساسية التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن أفكاره ومشاعره وتبادل المعلومات مع الآخرين. غير أن الاعتماد على اللغة المنطوقة بشكل منفرد لا يمكن الفرد من الوصول إلى مختلف أبعاد التفاعل الإنساني، لأن التواصل يشمل أيضاً عناصر أخرى غير لفظية، مثل الإيماءات وتعابير الوجه وحركات الجسد ونبرة الصوت والصمت.

والصمت، باعتباره لغة تواصلية، ظاهرة داخل النظام التواصلية تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة والتحليل، بالنظر إلى تعدد أبعاده واختلاف دلالاته. وهو ما يدفع إلى مقارنته من زاوية تتجاوز اعتباره مجرد غياب للكلام، وذلك بالنظر في أسبابه ودلالاته ووظائفه، انطلاقاً من أن "الصمت في حقيقته هو ردة فعل إزاء مثير ما، قبل أن يكون نظاماً تواصلياً ينجح إليه إما المرسل أو المرسل إليه".¹

وقد أسهم الاهتمام المتزايد بهذه الظاهرة في نقلها من مجال التصور العام إلى مجال البحث العلمي المنظم؛ إذ شكلت دراسة توماس برونو حول أشكال الصمت ووظائفه التواصلية، المنشورة سنة 1973، مساهمة أساسية في الانتقال من تصور الصمت بوصفه ظاهرة هامشية إلى دراسته باعتباره عنصراً متعدد الأبعاد، حيث ميز بين الصمت النفسي واللساني والصمت التفاعلي والصمت السوسيوثقافي.

ومن هذا المنطلق، تبرز الحاجة إلى الوقوف عند الصمت من الناحية المفاهيمية والدلالية، وتتبع حضوره في عدد من الحقول المعرفية، قبل الانتقال إلى تمثالاته في التراث العربي والإسلامي، حيث ارتبط بجذلية الكلام والسكوت، وبعدد من القيم الأخلاقية والثقافية التي منحت له دلالات متباينة بحسب المقام والسياق.

وينطلق هذا المقال، تبعاً لذلك، من مسألة الكيفية التي تشكل بها مفهوم الصمت دلاليًا واصطلاحياً، وكيف انتقل من مجرد غياب للكلام إلى قيمة ذات أبعاد ثقافية وأخلاقية داخل التراث العربي والإسلامي.

- المبحث الأول: الصمت وإشكالية التحديد المفاهيمي والدلالي

يتحدث هذا المبحث عن الصمت كظاهرة لغوية وتواصلية لها أبعاد متعددة، من خلال الانتقال من تحديد مفهومه المعجمي إلى الكشف عن قيمته الدلالية ووظائفه التداولية. وينطلق هذا التحليل من ضرورة التمييز بين غياب الكلام باعتباره حالة صوتية، والصمت باعتباره ممارسة وفعل تواصلية تشكل داخل سياق اجتماعي وثقافي معين، ولذلك سنحاول تحديد مفهوم الصمت بوصفه آلية تواصلية وكشف موقعه ضمن منظومة التواصل غير اللفظي ووظائفه التداولية.

1- الصمت في المعاجم العربية

ضرورة البحث في الصمت بوصفه فعلاً تواصلية تقتضي العودة إلى أصوله اللغوية، ذلك أن التحديد المعجمي يعتبر مدخلاً ضرورياً لاستجلاء الدلالات التي انتقل إليها المفهوم في الدراسات المعاصرة، غير إنه لا ينبغي أن يتحول إلى غاية في حد ذاته، فلا يكفي الوقوف عند المعنى المعجمي للوصول إلى فهم صحيح للوظائف الاجتماعية والثقافية التي يؤديها الصمت خلال التعبير عن الموقف التواصلية.

في التراث المعجمي العربي نجد أن ابن فارس يفسر الصمت بمعنى الإغلاق حيث يقول: "الصاد والميم والتاء أصل واحد يدل على إجمام وإغلاق".²

1 - بن صولة عبد الغني، "الصمت في النظام التواصلية والكتابات السردية: أسبابه - أصنافه ودلالاته"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 9، العدد 2، 2020، ص 27.

2 - ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م، ج 3، ص 308، مادة «صمت».



ونجد أيضا الصمت هو " الإمساك عن الكلام... وصمت يصمت صمتا وصموتا: سكت"³ وهو أيضا السكوت، أو الإمساك عن الكلام، وقيل: هو الإمساك عن القبيح من الكلام".⁴

يتضح من هذا أن الصمت في التراث العربي ليس هو توقف عن الكلام وفقط، بل هو فعل اختياري له معنى، غير أن هذا الامتداد التأويلي لا يعني أن ابن فارس أو في لسان العرب قد تشكل تصوراً تواصلياً للصمت بالمعنى الحديث، وإنما هو استنتاج يعتمد على المعنى المعجمي في بناء تصور أشمل للظاهرة.

ويستفاد من هذا التحديد أن الصمت يرتبط بالفعل الإنساني المتمثل في الامتناع عن الكلام، وفي سياق آخر يأخذ بعداً أخلاقياً كتصرف واع يعكس الحكمة في ضبط النفس واجتناب القبيح من الكلام.

غير أن تحليل المادة المعجمية يكشف أن الدلالة اللغوية لا تستوعب جميع الأبعاد التي قد يكتسبها الصمت داخل التفاعل. فغياب الكلام يمكن أن يقع في مواقف مختلفة، ولا يستلزم بالضرورة وجود رسالة مقصودة.

فالفرق بين الصمت بوصفه حالة صوتية والصمت بوصفه ممارسة اجتماعية لا يكمن في وجود الصوت أو غيابه، وإنما في الشروط التي تجعل هذا الغياب ذا صلة بعملية إنتاج المعنى.

2- المعنى الاصطلاحي

يختلف التعريف الاصطلاحي للصمت باختلاف الحقل المعرفي الذي يدرس فيه، مما يعكس تعدد زوايا النظر لهذه الظاهرة التواصلية المعقدة.

- في علم النفس: يتجه علماء النفس إلى تعرف الصمت على أنه " آلية دفاعية لا واعية يلجأ إليها الفرد لحماية ذاته من موقف يهدده، أو كتعبير عن صراع داخلي أو عجز عن التعبير بالكلمات"،⁵ هذا التعريف يوضح لنا أن الصمت قد يكون عبارة عن انعكاس لمشاعر داخلية أو مواقف يعيشها الفرد، وهذا المفهوم لا يلامس كل الجوانب لأنه قد يكون الصمت هو محاولة لضبط النفس أو كبت مشاعر الغضب يلجأ إليها الإنسان لضبط انفعالاته.

- في علم الاجتماع: ينظر علماء الاجتماع على أن الصمت هو: " ممارسة اجتماعية تخضع لقواعد ومعايير مجتمعية، تحدد متى يصمت الفرد ولماذا، وكيف يفسر صمته داخل النسق الثقافي"،⁶ من خلال هذا التعريف يظهر أن الصمت ليس مجرد سلوك فردي، بل يجعله ظاهرة اجتماعية تعكس علاقة الفرد بمجتمعه، إذن فالصمت قد يكون موقفاً فردياً مثل التعبير عن الاحترام، وقد يكون موقفاً جماعياً مثل صمت الجماعات والشعوب باعتباره شكل من أشكال المقاومة.

- في الفلسفة: تعتبر الفلسفة الوجودية أن الصمت " ليس غياباً للكلام، بل هو حالة وجودية تسبق اللغة وتتجاوزها، وهو وسيلة للوصول إلى الحقيقة والجوهر عندما تعجز الكلمات"،⁷ فالصمت بهذا المعنى يأخذ معنى أكبر من مجرد غياب للكلام، فيصبح أرقى من الكلام نفسه أحياناً، فرغم عمق تحليل معنى هذه الفكرة، يبقى إثباتها أمراً صعباً للغاية ولا حتى قياسها بطريقة علمية دقيقة.

³ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (دت). لسان العرب بيروت: دار صادر، مج 2، ص 213.

⁴ - الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت ج 1، 2005، ص 210.

⁵ - قطامي يوسف، علم النفس الاجتماعي، دار الشروق، عمان، 2004، ص 118.

⁶ - الزين محمد رضا، الصمت: دراسات في الأنثروبولوجيا اللغوية والاجتماعية، دار المدار الإسلامي، بيروت 2008، دط، ص 67.

⁷ - محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، ص 89.



– في اللسانيات: يندرج تحليل معنى الصمت عند اللسانيين ضمن ما يسمى ب: "علم اللغة التداولي"، باعتباره "وحدة كلامية دالة، وعنصر فعال في السياق التواصل، يقوم مقام الكلام وله قوة إنجازية تؤثر في سير المحادثة وتوجيهها"⁸، ويمكن أن نعتبر أن هذا التعريف الأكثر وضوحاً في دراسة الصمت، لأنه يعتبره مثل كلمة غير منطوقة صامتة لها معنى معين حسب سياق العملية التواصلية.

3- الصمت في الدراسات اللسانية المعاصرة

أسهم الاهتمام المتزايد باللغة والتواصل في إعادة النظر لمكانة الصمت داخل الدراسات اللسانية، وأصبح لم يعد ممكناً اختزاله في مجرد انقطاع عن الكلام، وإنما أصبح موضوعاً للتحليل من حيث أسبابه وأشكاله ووظائفه.

وفي هذا السياق، يقدم عبد الغني بن صولة تصوراً يقوم على إعادة ترتيب العلاقة بين أسباب الصمت ودلالاته. فهو يدعو إلى "النظر في أسباب الصمت، قبل النظر في الدلالات التي يخرج إليها."⁹

تكتسي هذه الفكرة أهمية منهجية بالغة، إذ تُبرز ضرورة الفصل بين تحليل الدوافع المنتجة للصمت والدلالات التي يستخلصها المتلقون منه. فالصمت قد ينبع من المتكلم من خلال تردده، أو انشغاله بالتفكير، أو شعوره بالخوف، أو عجزه عن الإجابة؛ كما قد يكون اختياراً للتعبير عن موقف محدد. فبالرغم من هذا التشابه الذي يظهر من ناحية الشكل المتمثل في غياب الكلام فإنها قد تتباين من ناحية أسبابها وظروف إنتاجها.

غير أن الانتقال من السبب إلى الدلالة لا بشكل مباشر أو تلقائي؛ لأنه قد ينسب المتلقي إلى الصمت معنى لا يتوافق مع الدافع الحقيقي الذي ولّده. فمثلاً، عندما يتمتع شخص عن الإجابة لعدم سماعه السؤال، قد يفسر مخاطبه هذا الامتناع على أنه تجاهل متعمد أو رفض ضمني. ويوضح هذا المثال أن المعنى المستنتج من الصمت لا يطابق بالضرورة المعنى الذي قصده الفاعل الصامت.

ويقتضي هذا التحليل التمييز بين ثلاثة مستويات تحليلية: المستوى الأول هو مستوى إنتاج الصمت، ويرتبط بالأسباب والشروط المولدة له؛ والمستوى الثاني هو مستوى القصد التواصل، ويتعلق بالغاية التي يسعى الفاعل إلى تحقيقها؛ والمستوى الثالث هو مستوى التأويل، ويتمثل في الدلالات التي يستخلصها المتلقي بناء على معرفته السابقة والسياق المحيط به.

4- الصمت بين البلاغة والإكراه

من خلال تحليل المقاربة اللسانية للصمت تظهر الضرورة لتجاوز التصورات التي تلزمه حصراً بالبلاغة والحكمة؛ فقد يكون الصمت كذلك عجز عن التعبير أو ضغوط اجتماعية تحد من حرية الكلام.

وقد تناول يوسف رحايمي هذا التعدد في دراسته للصمت بجعله معطى تداولياً ونسقاً خفياً في الخطاب، حيث يعبر بقوله: "بلاغة كان أو وعياً، إرادة كان أو قهراً."¹⁰

ومن خلال هذا التعبير يمكننا تقسيم الصمت إلى أربعة أبعاد، البعد الأول يتمثل في الصمت البلاغي، الذي يتخذه المتكلم وسيلة لتوجيه المعنى أو والتعبير بطريقة لا تستلزم التصريح المباشر، أما البعد الثاني فهو الذي يتعلق بالصمت الناتج عن العجز، يكون عندما لا يستطيع الإنسان صياغة أجوبة مناسبة، أو عندما يواجه صعوبات تحول دون التعبير اللفظي أو الكلام، ويتجلى البعد الثالث في الصمت الاختياري، الذي يتخذه الفرد بشكل مقصود من أجل تنظيم أفكاره ومشاركته بفعالية والرد بالجواب المناسب، بينما يتمثل البعد الرابع في الصمت المفروض والذي يكره عليه الفرد من خلال الظروف الاجتماعية أو المؤسسية أو البيئة الثقافية التي تحد من قدرة الفرد على

⁸ – أحمد خالد عبد الرحمان، الصمت في الخطاب العربي، دار الغريب، القاهرة، 2010، دط، ص 45.

⁹ – بن صولة، عبد الغني، "الصمت في النظام التواصل والكتابات السردية: أسبابه – أصنافه ودلالاته"، مرجع سابق.

¹⁰ – يوسف رحايمي، «الصمت معطى تداولياً ونسقاً خفياً في الخطاب»، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 2، العدد 1، الجزائر، 2018، ص. 281.



الكلام والتعبير. فالصمت الذي يختاره الإنسان طواعية للتأمل، يختلف عن الصمت الذي يفرض عليه نتيجة الخوف والإكراه، حتى وإن تشابهت صورتها الخارجية.

كما لا يمكن اعتبار الصمت إشارة على الموافقة بمجرد غياب الاعتراض اللفظي، لأن الموافقة موقف يتطلب حجج تسمح بالتحقق منه، في حين أن ما ينتج عن الامتناع عن الكلام عن أسباب قد تكون بعيدة عن الموافقة والقبول.

ولذلك فإن دراسة الصمت تقتضي التمييز بين حرية رفض الكلام والحرمان من الكلام بالإكراه، لأن الفارق بينهما لا يتعلق بالتفسيرات اللغوية وحدها، بل يصل إلى طبيعة البيئة الثقافية والاجتماعية التي تؤسس لمفهوم الصمت بدلالات خاصة بها.

– المبحث الثاني: الصمت في التراث العربي والإسلامي: من الجدلية إلى التوظيف الثقافي.

1- جدلية الصمت والكلام في الموروث العربي

الصمت والكلام في الموروث العربي يعرف انقساماً واضحاً كما هو مبين في النصوص التراثية؛ بين من يؤيد الصمت وبين من يؤيد الكلام، فبينما نجد الأكثرية تميل إلى تأييد الصمت، هناك من وقف موقفاً وسطاً، وقد بلغت قوة الصوت المؤيد للصمت ذروتها في العصور اللاحقة، حيث دعا المعري إليه لأسباب نفسية أو فلسفية، ورأى أبو حامد الغزالي من منطلقات صوفية انسحابية أن ثلاثة أرباع الكلام لا خير فيه والباقي لا يسلم من الخطر. ومن الأشعار المأثورة في هذا الباب قول القائل: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب»، و«الندم على الصمت خير من الندم على القول».

ثنائية الصمت والكلام في الموروث الفكري والأدبي العربي، ارتبطت بمجموعة من القيم الأخلاقية والبلاغية والاجتماعية التي تحدد علاقة الإنسان باللغة، وتوجه سلوكه داخل المواقف التواصلية المختلفة. ولم تتأسس هذه الثنائية على التعارض المطلق بين الكلام والامتناع عنه، وإنما تشكلت ضمن جدل فكري حول فضيلة كل منهما، والشروط التي تجعل الكلام محموداً أو تجعل الصمت أكثر ملاءمة. فمن جهة، ارتبط الصمت بالحكمة والتروي وضبط اللسان وتجنب آفات القول؛ ومن جهة أخرى، ارتبط الكلام بالبيان ونقل المعرفة والإقناع والتأثير في الآخرين. وقد تناول عبد الله بن سالم الخلف هذه الإشكالية في دراسته حول جدلية الصمت والكلام في التراث العربي، مبرزاً اختلاف المواقف التراثية بين اتجاه يفضل الصمت، واتجاه ينتصر للكلام، وموقف توفيقي يربط قيمة كل منهما بمقتضيات المقام ومضمون الخطاب.¹¹

وتتجلى هذه الجدلية بوضوح في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، الذي ناقش الحجج التي اعتمد عليها المدافعون عن الصمت، في مقابل الحجج التي قدمها أنصار الكلام والبيان. وقد عبّر الجاحظ عن موقفه بقوله: "وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله."¹²

ويعبر هذا التصور عن موقف يتجاوز التفاضل بين الصمت والكلام، ويجعل قيمة كل منهما مرتبطة بطبيعة الموقف التواصلية ووظيفته الاجتماعية. فالصمت لا يكتسب أهميته بالامتناع عن النطق، كما أن الكلام لا يستمد قيمته من القدرة على التعبير وحدها، وإنما تتحدد قيمة كليهما بحسب مضمون الرسالة والنتائج المترتبة على إنتاجها أو الامتناع عنها. ومن ثم، يمكن النظر إلى الصمت عند الجاحظ باعتباره باب لفهم الصمت من داخل وظيفته التواصلية.

¹¹ – عبد الله بن سالم الخلف، «جدلية الصمت والكلام في التراث العربي»، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية، المجلد 3، العدد 2، يوليو 2010، ص. 293، بتصرف.

¹² – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1418هـ/1998م، ج1، ص 226.



ويتأكد هذا التحليل في ما جاء به ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، حيث عرض موقفه توفيقاً بين جملة من الآراء المؤيدة والمعارضة لأفضلية الصمت والكلام؛ فقال: "الكلام في الخير كله أفضل من الصمت، والصمت في الشر كله أفضل من الكلام".¹³ وينتهي هذا القول الجدل حول المفاضلة من المستوى الشكلي، إلى المستوى القيمي الذي يربط الفعل التواصل بالمضمون والنتائج. فالكلام يكتسب قيمته حين يكون وسيلة لنقل المعرفة وتحقيق المنفعة، بينما يصبح الصمت محموداً عندما يمنع صدور الكلام الغير المناسب، وهذا يؤكد حضور البعد الأخلاقي في التصور العربي القديم.

انطلاقاً من هذه التصورات، يمكن القول إن جدلية الصمت والكلام في الموروث العربي لا تقوم بالضرورة على علاقة تناقض أو إقصاء متبادل، وإنما تكشف عن علاقة مركبة تجمع بين التعارض والتكامل تبعاً للسياقات المعرفية والأخلاقية والاجتماعية. فقد انشغل عدد من أعلام التراث بفضائل الصمت ومخاطر الكلام، بينما أكد آخرون أهمية البيان في نقل المعرفة والتأثير في الحياة الاجتماعية. ويرز هذا الاختلاف في تعدد المرجعيات التي أسهمت في تشكيل التصورات العربية حول الصمت، وهو ما تؤكد دراسة الخلف في تناولها اتجاهات المفاضلة بين الصمت والكلام في التراث العربي.¹⁴

وعليه، فإن الصمت في هذا الموروث لا يظهر بكونه غياباً مطلقاً للتواصل، بل تفاعل لغوي اجتماعي يتحدد معناه حسب طبيعة العلاقة بين المرسل والمرسل إليه وطبيعة المقام.

2- الصمت في المرجعيات الإسلامية

يحتل الصمت منزلة رفيعة في المرجعيات الإسلامية، حيث يعد مصدراً للخير في كثير من المناسبات التي تقتضي حفظ اللسان. وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». وبين هذا الحديث أن الإيمان يقترب بحفظ اللسان، حينما يتعلق الأمر بما ليس فيه خير يثاب عليه المؤمن، وبذلك يصبح الصمت حكمة تحول بين الإنسان وبين ارتكاب المعاصي بسبب اللسان.

تعتمد المرجعيات الإسلامية في تأصيل الجدل حول الكلام والصمت من منطلق ضبط اللسان وترشيد القول، ما جعل الصمت يحتل مكانة أخلاقية تربوية بارزة، حيث يؤسس القرآن الكريم لهذا المعنى بربط القول بالمسؤولية، حيث يقول تعالى: (مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)،¹⁵ وهذا يصبح القول عمل أخلاقي خاضع للمراقبة والمحاسبة، وليس مجرد كلام عابر، كما أن القرآن الكريم يميز بين الكلام المفيد والنافع وبين الكلام الذي لا فائدة ولا معنى له، حيث يقول عز وجل: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بَصْدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)،¹⁶ وهذا ما يجعل الصمت والكلام في منظور القرآن الكريم يتأسس على المنفعة والقيمة الأخلاقية التي ترجى منه، فكثير من الآيات تؤكد هذا المعنى وتحتزل جدلية الصمت والكلام في النتائج والانعكاسات، مثل صمت يوسف عليه السلام عن معاتبة إخوته بعد انكشاف أمرهم، وغير ذلك من المواقف التي يصبح فيها الصمت أبلى من الكلام وأوضح للمعنى أو فائدة الصمت أقوى من ضرورة الكلام.

وتتوافق السيرة النبوية مع هذا المعنى في كثير من الأحاديث النبوية، ومنه ما ورد في الحديث الشريف القائل فيه صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)،¹⁷ وهنا يقترب الصمت بغياب الخير عن الكلام، وليس بالامتناع عن التواصل،

13 - بن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1404هـ/1983م، ج2، باب المنطق، ص304.

14 - عبد الله بن سالم الخلف، جدلية الصمت والكلام في التراث العربي، مرجع سابق، ص 225-293، بتصرف.

15 - القرآن الكريم، سورة ق، الآية 18.

16 - القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 114.

17 - البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط. 1، دار طوق النجاة، 1422هـ، ج. 8، ص. 11، حديث رقم 6018.



فإنسان إذا أراد الكلام وفيه خير محقق ينبغي عليه أن يتكلم، أما إن رأى أنه لا خير فيه فالأولى له أن يصمت، وفي هذا السياق جعل أبو حامد الغزالي باباً لبيان فضيلة الصمت وخطر اللسان في كتابه إحياء علوم الدين، حيث يقول: "ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة".¹⁸ فبسبب كثرة آفة اللسان أصبح الصمت نوعاً من النجاة وفيه سلامة للإنسان، وبذلك يصبح الصمت ممارسة أخلاقية واعية تقوم على محاسبة النفس وحفظ اللسان من الزلل أكثر من مجرد امتناع عن الكلام. ويتمشى ذلك مع الفكر الإسلامي الذي يعتبر الصمت أداة لتهديب الروح، لأنه يساعد على التقوى والتأمل والتدبر في ملكوت الله والخشوع له، ومنه نجد مفهوم الصيام عن الكلام، أو فلسفة الصمت.

ويمكن أن نستخلص من المرجعية الإسلامية أن مفهوم الصمت قائم على مبدأ التوازن، الكلام يصبح واجباً عندما يرتبط بالخير، والصمت يصبح ضرورة عندما يمنع الشر أو ما فيه ضرر.

– خاتمة

من خلال المباحث التي تناولها هذا المقال يتضح أن الصمت ليس مجرد فراغ وغياب للكلام أو انقطاع عن التلفظ، بل هو ظاهرة مركبة تتصل فيها أبعاد دلالية وثقافية واجتماعية. فقد بين البحث في إشكالية المفهوم الدلالي للصمت صعوبة اختزاله في تعريف واحد، نظراً لتعدد مشاربه وصوره ووظائفه واختلاف دلالاته باختلاف الحقول المعرفية والسياقات التي يستعمل فيها. ومن ثم، فإن فهم الصمت يقتضي تجاوز وصفه بغياب الكلام، والنظر إليه باعتباره مفهوماً متعدد الأبعاد تتداخل في تحديده الدلالة والسياق والثقافة.

كما اتضح من خلال استقراء حضور الصمت في التراث العربي والإسلامي تعدد التصورات المحيطة به، تارة بتمجيده واعتباره مظهراً من مظاهر الحكمة والتبصر وضبط اللسان، وتارة أخرى من خلال التحذير منه عندما يتعلق الأمر بإحقاق الحق أو الانسحاب من المسؤولية. وقد أسهمت هذه الجدلية في تشكيل توظيفات ثقافية واجتماعية متنوعة للصمت، حيث أصبح مرتبطاً بمنظومة القيم والأخلاق والآداب، وواجهة تعكس تصورات المجتمع للكلام والصمت والعلاقة بينهما.

وعليه، يكشف الانتقال من التحديد المفاهيمي والدلالي إلى استقراء المرجعيات العربية والإسلامية أن الصمت لا يستمد دلالاته من غياب القول وحده، وإنما من المنظومة الثقافية والقيمية التي تؤطره وتحدد موقعه ووظيفته. وهو ما يبرز أهمية مقارنته باعتباره مفهوماً تتقاطع فيه الأبعاد اللغوية والدلالية والثقافية.

¹⁸ – الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1358هـ/1939م، ج. 3، ص. 108.



المراجع والمصادر

- القرآن الكريم برواية ورش.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م، ج 3، ص 308، مادة «صمت».
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (دت). لسان العرب بيروت: دار صادر، مج 2.
- أحمد خالد عبد الرحمان، الصمت في الخطاب العربي، دار الغريب، القاهرة، 2010، دط.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط. 1، دار طوق النجاة، 1422هـ—، ج 8.
- بن صولة عبد الغني، "الصمت في النظام التواصل والكتابات السردية: أسبابه - أصنافه ودلالاته"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 9، العدد 2، 2020.
- بن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1404هـ/1983م، ج 2، باب المنطق.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1418هـ/1998م، ج 1.
- الزين محمد رضا، الصمت: دراسات في الأنثروبولوجيا اللغوية والاجتماعية، دار المدار الإسلامي، بيروت 2008، دط.
- عبد الله بن سالم الخلف، «جدلية الصمت والكلام في التراث العربي»، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المملكة العربية السعودية، المجلد 3، العدد 2، يوليو 2010.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1358هـ/1939م، ج 3.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت ج 1، 2005.
- قطامي يوسف، علم النفس الاجتماعي، دار الشروق، عمان، 2004.
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
- يوسف رحامي، «الصمت معطى تداولياً ونسقاً خفياً في الخطاب»، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 2، العدد 1، الجزائر، 2018.